سجل هذا الكتاب برقم

# لورنس

## العسكري والرجل والثورة العربية

## Lawrence of Arabia (١)

كان غرضهُ من ساعة دخولهِ الميدان مزدوجاً — ان يبدّد ما أحاط بمقام بلاده من الغيوم في الشرق الادنى بانشاء دولة عربية تتكىء عليها بريطانيا في خطتها الحربية ، وان يحرّر العرب من نير الاتراك فيفسح لهم المجال لتحقيق آمالهم . وقد تحقق هذا الغرض على يديهِ أبدع تحقيق . فأعمال العرب التي تمت باشراف لورنس في خلال الحرب ، كان لها شأن كبير في شل قوى الاتراك وتفخ روح الحياة في حركة البريطانيين . فكانوا بذلك عاملا حيويًّا في هزيمة الاتراك ونصر الانكليز . ثم ان تيار الثورة العربية الذي امتدَّ من مكة الى دمشق انتهى الى انشاء دولة عربية في سورية

أما بعد الحرب فقد تعارضت مصالح حليفة بريطانيا الكبرى مع مصالح حليفتها الصغرى فتغلبت عليها ، فهدم بناء الدولة السورية الجديدة . وما كان للورنس حيلة في دفع هذا الاعتراف ، ولكنهُ خرج في سنة ١٩٢١ من عزلتهِ في اكسفورد فوجه سياسة دولتهِ توجيهاً كان من شأنه ان منح فيصل مُلْكاً جديداً بعد أن سلبهُ الفرنسيون ملك الشام . وأقيم أحد اشقائه أميراً على الدولة العربية الجديدة في شرق الأردن

كانت الحركة العربية التي غذّاها لورنس وارشدها وهي في مهدها أهم حركة ظهرت من بلاد العرب في خلال القرون العشرة الاخيرة . وليس ينقص من قيمة نتائجها ان بعض قبائل العرب فقط اشترك فيها اشتراكاً فعالاً . اذ لا ريب في ان العرب اصبحوا بعد انقضاء قرون ، عاملاً قويًّا في ميدان السياسة يجب ان يحسب حسابهُ . فالصال العرب بالشعوب الاوربية هذا الاتصال الجديد يسوّغ من الناحية التاريخية تلقيب لورنس — وقد كان العامل الفعال في هذه الصلة الجديدة — لورنس أوف ارابيا

ولكن هناك تسويغ اهم شأناً وابعد اثراً وهو التسويغ النفسي . فالالقاب الجغرافية . تنزل في مكانها الصحيح ، عند ما تعرب عن اندماج بين الشخصية الانسانية والحقيقة الجغرافية . فالصحراء كانت في دم لورنس ، وقد كان الاندماج بين روحه وروح الصحراء اندماجاً تامًّا

كان لورنس يحبُّ التجوّل من حداثتهِ ، ويميل الى العزلة بفطرتهِ . فكان يقضي ساعات فراغهِ في حداثتهِ يتتبع الجداول الى منابعها او الى مصابها ، او يجمع قطعاً من الخزف الروماني القديم او

(١) ملخص فصل انشأه ليدل هارت Liddel Hart احد النقدة العسكريين الانكليز في كتابه «العظماء المعاصرون» الذي نشره محل كامل في اوائل هذه السنة ويؤلف الفصل كتاب حديث في سيرة لورنس

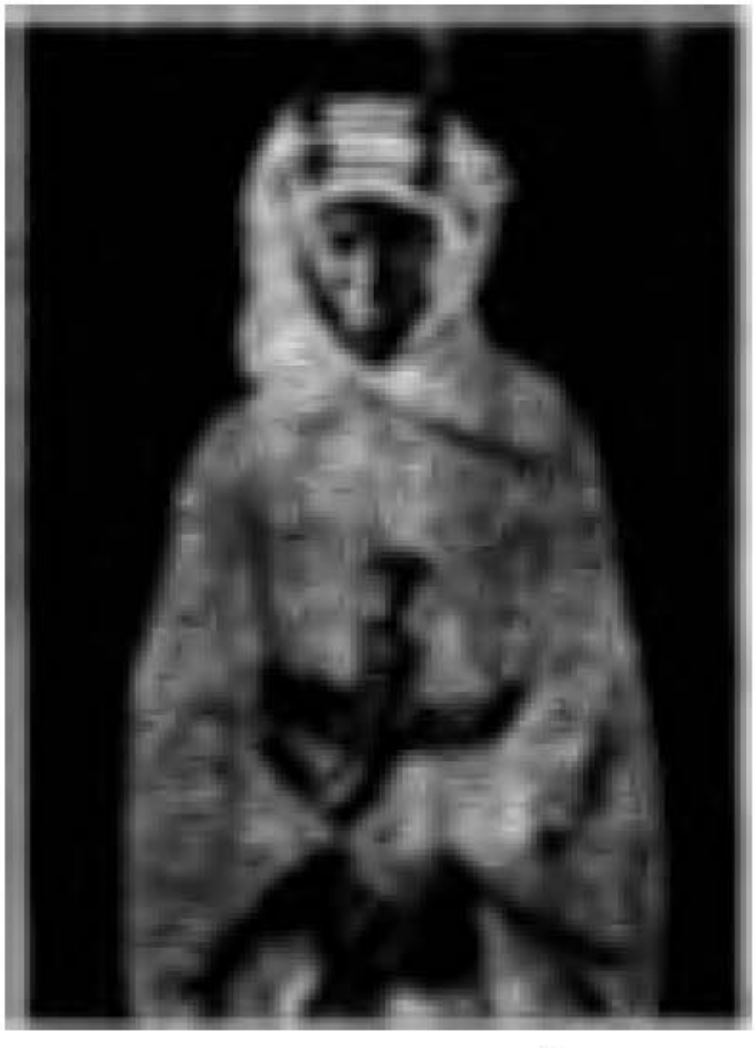

الكولونل لورنس بملابسه الرسمية

Colonel T. E. Lawrence

يرود وحدهُ الكاتدرائيات والتصور القديمة معنيًّا بتفصيلات هندستها المعمارية

وفي حداثته كذلك تجوّل في فرنسا ، ثم قبل تخرجه من الجامعة جاس خلال سوريا مشياً على الاقدام ، في حرارة العطلة الصيفية ، باحثاً في قصور الصليبيين منقباً عن آثار الحصين . ثم عاد اليها في السنوات السابقة للحرب ، لممارسة اساليب البحث الاثري . فلما توقفت اعمال التنقيب في قرقميش جال في العراق وفلسطين ومصر واسيا الصغرى واليونان . وكان يصحبهُ في بعض رحلاته احد ابناء البلاد . وكان يرتزق في خلالها من القيام ببعض الاعمال كسوق الابل او جمع الحصاد بل انهُ اشتغل مرة مع زمرة العمال في بور سعيد في تعبئة احدى البواخر بالفحم . وقد اشار الى ذلك في بعض كتاباته فقال: «كنت دائماً رائحاً وغادياً حيث كان الرواح او الغدوُّ رخيصاً » . وقال ايضاً : « حملني فقري على الاتصال بالجماهير ، حيث السائح الغني يتفصل عنها بمالهِ ومَن يتولى خدمته» . وكذلك افلح لورنس ، بتخلّيهِ عن تقاليد الحياة المدنية ، في صيرورتهِ مستعرباً بدلاً من ان يظل زائراً اوربيًّا لبلاد العرب . فكانت لا تهشُّهُ مظاهر الاحترام ، التي يطلبها ويتوقعها الزوّار الاوربيون وبوجهٍ خاص الزوار الانكليز . وقد مهَّد له هذا السبيل انعتاقه من قيود الشعور بان الناس طبقات فاندمج في العرب وساز احدهم بالانتساب

ولكي يسهل الامر عليهِ ، مال الى لبس الثوب العربي في خلال تجوالهِ . وحجتهُ في ذلك « انهُ اذا ذهب بعض العرب الى وغن (وهي بلدة صناعية في لانكشير ) بثوابهم العربية فالغالب ان اولاد وغن يرجمونهم بالحجارة »

فالاختلاط بالاطفال يقتضي ان تجردهم من نوازعهم الخاصة التي تقصيهم عنك . ولعل هنالك من يقول كيف استطاع لورنس ان يفعل ذلك ، بشعره الاشقر ، وذقنه الحليق ، وبشرته التي تحمرُّ من وقع الشمس بدلاً من ان تسمرَّ ؟ بيد انَّ هنالك ما يدل على ان العرب قبلوه واحداً منهم وان كانوا لم يخطئوه . وهو يقول ان ذلك لم يكن صعباً في سوريا ، حيث اقضى اختلاط السلالات الى كون بعض ابناء البلاد شقراً ، والى كون بعضهم لا يعرف العربية الاَّ معرفة ناقصة . قال : « كان من المستحيل عليَّ ان احسَب عربيًّا ، ولكنه كان من السهل ان احسب احد ابناء البلاد الذين يتكلمون العربية »

ولكن لورنس تخطَّى في كلامه هذا التفسير الصحيح لنجاحهِ وهو مقدرته على فهم العرب . فقد كان هذا الفهم ميسوراً له لان روحه كانت مطبوعة بما طبع عليه العربي من حب للحرية المطلقة . وكان مثلهُ مجرداً من اية رغبة في حيازة المستلكات المادية في سبيل الرفاهة ، بعد ان يدفع ثمنها غالياً بخضوعه للقيود التي تفرضها على الانسان . وكان العطف سرَّ فهمه للعرب . فبهذه الملكة استطاع ان يتبين انه لا توجد بينهم فوارق طبيعية او تقليدية ، الاَّ فارق القوة التي يمتاز بها شيخ من الشيوخ نتيجة لعمله . قال: « وقد علمتني انه ليس ثمة رجل يستطيع ان يصبح زعيماً لهم الاَّ اذا اكل

طعام السواد ولبس ملابسهم وعاش في مستواهم على ان يكون له من قوة نفسه ما يميزه عنهم » . هذه المعرفة عند التطبيق كانت سرّ نجاح لورنس في صلته بالعرب

وله في هذا الصدد كلام واف افرغه في قالب تعليمات وزعت على الضباط البريطانيين الذين بعثوه الى المنطقة العربية في خلال الحرب الكبرى . فهذه التعليمات كانت بمثابة وصفة للنجاح في اتصال البريطانيين بالعرب ، ولكنها كانت كذلك منطوية على تحذير من المصاعب وبيان لما تقتضيه من الجهد

ومن اقواله فيها : « اذا لبست ملابس العرب امضِ في الطريق الى نهايتها . اترك اصدقاءك الانكليز وعاداتهم على الشاطىء واتبع عادات العرب بمذاقيرها . . . . على ان جهد المعيشة في جو غريب ، والتفكير بلسان غريب لا تفهمهُ الا نصف فهم ، وأكل الطعام البدوي ، ولبس الملابس الغريبة ، واتباع الاساليب الغريبة ، والتنازل عن كل الغزال وسكون ، واستحالة تراخيك في مراقبة نفسك وأنت تقلد غيرك شهوراً متوالية ، كلُّ ذلك مضافاً الى المصاعب العادية في معاملة البدو والترك ، والتعرض لحالة الجو المرهق ، تفرض على الانسان عبئاً ثقيلاً ، فعليه ألاّ يختار هذه الطريق الاّ بعد تأمل وتفكير عميق

« ان الالف والياء في سر الاتصال بالعرب هما عدم الونى عن درسهم . فكن دائماً على حذر . لا تقل قولاً لا تقتضيه الضرورة . راقب نفسك ورفاقك دائماً . اسمع كل ما يقال وابحث عما يجري وراء الظواهر . اقرأ اخلاقهم . اكتشف ما يلذُّ لهم ، وتبيَّن مواطن الضعف فيهم ، واحتفظ بكل ما تكتشفهُ لنفسك . . . ونجاحك يكون على قدر الجهد الذهني الذي تبذله في هذا السبيل »

في هذه العبارة الاخيرة ، مفتاح لفهم عمل لورنس بوجهٍ عام ، بل مفتاح لفهم نجاحه في القيادة الحربية وفي قيادة العرب في الحرب . ولعل أهم ظفر اوتيهِ لم يكن استنفار العرب للحرب ، بل فرض مقدرتهِ كزعيم عسكري ، على اخوانهِ الضباط الانكليز الذين اتصلوا بهِ اتصالاً وثيقاً . وليس ثمة أبعث على الدهشة من استعداد هؤلاء الضباط الذين كانوا يفوقونه ، رتبة عسكرية ، لاتباع قيادته . كان هذا دليلاً على انهم كانوا رجالاً ممتازين ، يستطيعون ان يسموا فوق تقاليد الطبقة التي ينتمون اليها ، فهو برهان كذلك على صفاتهِ العسكرية الممتازة

ولعلنا نستطيع ان نفسّر مقامهُ هذا بعض التفسير بايراد العبارة التي قالها ڤولتير في القائد مولبورو : كان يمتاز عن سائر قواد عصرهِ بشجاعتهِ الهادئة في وقت الصخب ، وبطمأنينة نفسه في زمن الخطر ... وهما أعظم ما تهبهُ الطبيعة للقائد »

ولكن لورنس امتاز بشيء اكثر مما تقدم . فالبريق الذي اقترن باسم لورنس والغموض الذي أُضفي على شخصيته ، اخفيا عن بعض العيون ، القوة التي نبعت من معرفته العميقة بفنون الحرب . وفي هذه المعرفة نجد الرسالة التي تستمدُّ من عملهِ العسكري ، لان لورنس كان في الواقع ، أعمق معرفة بقواعد الحرب من أي قائد في الحرب الكبرى

قد يكون قولنا الاخير باعثاً على الاستغراب عند النظرة الاولى . ولكنهُ في الواقع قول صحيح. فلا ريب في ان طائفة كبيرة من قواد الحرب الكبرى كانت اعرف بالجيش من لورنس . ولكنهُ كان يمتاز عليهم في كل ناحية اخرى. وقد ساعده على ذلك شبابهُ. كان معظم هؤلاء القواد قد قضوا الشطر الاكبر من حياتهم في سبيل الارتقاء من الصفوف الى مناصب القيادة . كانوا في شبابهم اما ضباطاً في «المدفعية»، او في «المشاة» او غيرها ولكن خبرتهم في نوع السلاح الذي اختصوا بهِ فقدت اكبر جانب من قيمتها بارتقاء وسائل الحرب . فالمدفع الرشاش الذي كان مسيطراً على ميادين القتال في الحرب الكبرى ، كان سلاحاً جديداً ، اتقن استعماله بعد ما تخطوا هم دور الشباب . ولكن لورنس توفر على جميع هذه الآلات الجديدة ، توفراً يستغرب حتى من شابٍّ متحمس ذكيٍّ ، ثم إنهُ لم يكتف بذلك بل اضاف الى استعمالها شيئاً من ابتداعهِ الخاص

ليست معرفة ادوات الحرب معرفة وثيقة مما لا يستغني عنهُ القائد ، ولكنها معرفة لها قيمة عظيمة . ونحن اذا نظرنا الآن الى سير الحرب الكبرى ، نرى انهُ لو كانت معارف القواد الكبار بادوات الحرب الجديدة اتمَّ مما كانت ، لساعدتهم على اجتناب كثير من الاخطاء التي وقعوا فيها

كان لورنس في حداثتهِ قد وثَّق معرفتهُ بالتاريخ وبنظرية الحرب العليا . والواقع انني لا اعرف قائداً يضاهي لورنس في سعة مطالعاتهِ في هذا الموضوع . بدأ وهو في السادسة عشرة بمطالعة ما كتبهُ كرسي وناپيير وماهان وهندرسن في هذا الصدد وهؤلاء كانوا في الغالب جهد ما يبلغهُ القائد البريطاني في دراستهِ العسكرية . ثم ارتقى بعد ذلك الى مطالعة كلوز ولتز وجومينى وجولتز وفوش . ولما لم يكتف بما تقدم عزم على تصفح رسائل نپوليون التي تملأ اثنين وثلاثين مجلداً وهذا حمله على دراسة الكتب التي بنى عليها نپوليون قواعد خططهِ العسكرية فانكبَّ على دراسة جيبر وبورسه وساكس . وكذلك نرى هذا الطالب الفتى يتتبع الخطط النپوليونية الى مصادرها في زمن كانت فيهِ هذه المصادر مجهولة من معظم العسكريين . ومع ذلك لم تكن مطالعاتهُ في التاريخ العسكري ، الا ناحيةً واحدة فقط من مطالعاتهِ الواسعة النطاق، حتى لقد قيل انهُ قرأ كل كتاب في مكتبة اتحاد اكسفرد . ولكن الصحيح انهُ قرأ كل كتاب لذَّت له قراءتهُ فكان يجلس في المكتبة ويبدأ في مطالعة رفٍّ من الكتب في موضوع يهمهُ ، فيتصفح بعضها ويأخذ معهُ الى داره ما يهمهُ انعام النظر فيهِ . فكان يطالع كذلك نحو ثلاثة كتب رزينة في اليوم ورواية بعد الظهر استجماماً لراحة الذهن . وكان في جميع مطالعاتهِ يعمد الى المراجع ولا يكتفي بالنتف والملخصات

ومما كان لهُ اثر عظيم في تنمية مطالعتهُ لمؤلفات مفكري القرن الثامن عشر الذين مهَّدوا للثورة الفرنسية . فهذه الثروة العظيمة من المعرفة التاريخية مؤيدة بمعرفة عامة في جميع الموضوعات المتصلة بالحرب جعلتهُ فذّاً بين قوَّاد عصرهِ . فلما جمع الى معرفته النظرية خبرتهُ وعناصر شخصيته القوية حوَّل معرفته العسكرية النظرية الى عبقرية عسكرية عملية نادرة

مكنتهُ عبقريتهُ هذه من التغلُّب على حوائل لم يتعرَّض لها كبار القوَّاد في الحرب الكبرى. كان عليهِ ان يكون قائداً من دون قيادة. وزعيماً لا يسمعُ الاَّ افراغ أوامره في قوالب النصح والارشاد. وكان جيشهُ مؤلفاً من رجال عرفوا بنزعتهم الفردية المستقلة وقد جمعوا من قبائل مختلفة ومتنافرة أحياناً. أما وسائل الحروب الحديثة، التي درسها لورنس وعرف مزاياها، فكانت غير متوافرة لديهِ فاضطرَّ ان يعتمد على قوة ابتداعهِ، لابتكار الخطط التي تمكنهُ، رغم كل هذا من تحقيق الغرض الذي وضعه نصب عينيهِ. بل ان اكبر العوائق التي قامت في سبيلهِ كانت اقناع رؤسائهِ بقيمة هذا الجيش في الصحراء، مع شدة اعراض هؤلاء واحتقارهم لأية مساعدة عسكرية غير نظامية

ان تاريخ السنتين التاليتين، مقياس للنجاح العظيم الذي أصابه في هذا المسلك الوعر. ان ما تمَّ على يدي لورنس والعرب من أعجب ما يرويه التاريخ العسكري. فقد نظمت الثورة العربية، وتحوَّل احتلال الاتراك للجزيرة الى حامية محصورة، لم تلبث ان سقطت في أيدي أعدائها، كما تسقط التفاحة الناضجة عند هبَّة الريح. وقد كان احتلال العقبة وحده من نوادر الظفر الحربيّ. فقد احتلها العرب بقيادة لورنس بعد خسارة رجلين من الفريق المهاجم مقابل ١٢٠٠ قتيل وجريح وأسير من الاتراك. فكان هذا الظفر ملافياً للخذلان الذي اصيب بهِ الجيش الانكليزي في غزة، وتفويتاً لاضرارهِ، وأزال كلَّ خطر يهدِّد مواصلات الجيش الانكليزي في فلسطين، والمواصلات الامبراطورية البريطانية في قناة السويس. ولكن انتشار الثورة في بلاد العرب، كان لهُ الى جانب هذه النتائج السلبية، نتائج ايجابية، لان عدد الاتراك الذين عهد اليهم في حماية سكة حديد الحجاز، والبلاد التي الى جنوبهِ، كانوا اكثر من الاتراك الذين واجهوا الانكليز في فلسطين

وفي المرحلة الثانية من غزوة الانكليز لفلسطين، أي بعد احتلال القدس، كانت القوات العربية، كالجنّ يحمي مؤخرة الجنرال اللنبي، ويستوقف نظر الاتراك فيضطر هؤلاء الى توزيع قواهم بين فلسطين والصحراء. وقد بدأت خدمة العرب هذه، بعناية لورنس بتدمير قطارات سكة حديد الحجاز، ذاهباً في عمله هذا الى الشمال ما استطاع، حتى لقَّبه المعجبون بهِ من العرب «بمدمر القاطرات». ولما كانت ذخيرة الأتراك من القاطرات أقلَّ من ذخيرتهم من الرجال، كان تدمير القاطرات افعل في اضعافهم من قتل الرجال. ثم قطع العرب موارد الاتراك من منطقة القمح شرق البحر الميت بالسطو على القوافل المحملة قمحاً. وكذلك استطاع لورنس والعرب ان يسترعوا عناية الاتراك في النصف الاول من سنة ١٩١٨ لما كان جانب كبير من جيش اللنبي قد نقل الى فرنسا لتعويض خسائر الحلفاء في مياديها

ثم انهُ جاء الى هذه حال دون تجميع الاتراك لقواتهم، وتنظيم مقاومتهم للجيش البريطاني، فمهَّد خير تمهيد، لضربة اللنبي القاضية في خريف سنة ١٩١٨. وقد اعترف الجنرال لمان فون ساندرز انهُ تخلَّى عن فكرة مقاومة الانكليز لانهُ عجز عن صدّ ثوَّار العرب في مؤخرة الجيش التركي

وفي سبتمبر كان اللنبي مستعداً للهجوم. وكان نصف الجيش التركي ، المرابط الى جنوب دمشق مضطراً ان ينصرف عن مقاومة اللنبي خوفاً من تهديد بضعة آلاف من العرب في الصحراء. وكذلك استطاع اللنبي ان يهاجم الاتراك بقوة تفوق قوتهم خمسة اضعاف . وكان لورنس في الشهر السابق قد خدع الاتراك بسلسلة من المناورات ، فحملهم على الظن ان هجوم اللنبي سوف يجيء من الشرق من ناحية عمان بدلاً من الشمال من ناحية الجليل . وفي الايام الثلاثة الاخيرة من الاستعداد للمعركة الفاصلة ، خرج العرب من مكامنهم ونسفوا خطوط السكة الحديد الى الشمال من درعا والى جنوبها وغربها، وكانت هذه النقطة ملتقى مواصلات الاتراك . فتضعضعت هذه الضربة الاتراك اذ كان اللنبي مستعداً للانقضاض عليهم فسحقهم في المعركة التي تلت سحقاً واجهزت الطيارات البريطانية وفصائل الفرسان البريطانيين على الذين لاذوا بالفرار . ولم يبق امام البريطانيين الا الجيش التركي الرابع ،وهو اقوى وحدات الاتراك . فاقدم لورنس بفصيلة من العرب على الزحف الى مؤخرة الجيش فلم يلبث الجيش الرابع حتى تفرق بدداً فانهكه التراجع، وعند ابواب دمشق التقى العرب باكبر شرذمة منهُ فاجهزوا عليها ، ودخلوا دمشق امام الانكليز

لم يكن احتلال العرب لدمشق ، تزكية لثورتهم فقط ، بل تزكية كذلك لفكرة قامت في ذهن لورنس، وتأييداً لنظرية عسكرية مضى عليه زمن وهو يطبقها. واذا كانت بزور هذه النظرية قد زرعت في ايام المطالعة اذ كان لا يزال طالباً في اكسفرد ، فان ميعاد القطاف جاء في خلال سنة ١٩١٧ لما كان لورنس على فراش المرض في وادي قيس، وامامه من الوقت متسع للتفكير والتأمل. فعلى فراش المرض تدبر لورنس كيف يستطيع ان يعالج القوة التركية في الحجاز ، وكانت حينئذٍ مجتمعة في المدينة . فالخطط الحربية المتبعة كانت تقضي ببذل الجهد لاخراجهم من المدينة . ولكن هذا الحل لم يبد بسيطاً في نظره وخاصة في نظر من يعرف شعور العرب من قتل الحرب . واذ هو يفكر هبط الجواب عليه، كأنهُ نفحة من الالهام . فقال : ولماذا نهتم هذا الاهتمام بالمدينة وحاميتها . انافتتاحها الآن متعذر. ولكن ما الفائدة من افتتاحها على اية حال. بل اليس من الضرر ان نفتتحها ؟ واليك ما كتبهُ في هذا الصدد

«ان الاتراك فيها مدافعون لا يتحركون ، يتغذون بلحم الحيوانات التي يجب ان تستعمل لنقلهم الى مكة . انهم وهم مرابطون في المدينة لا يستطيعون ان ينالونا باذى . فاذا اسرناهم كلفونا غذاء وحراسة في مصر . واذا اخرجناهم من المدينة ودفعناهم امامنا الى الشمال انضموا الى الجيش التركي المرابط لنا في سيناء . فالافضل ان يبقوا حيث هم . هم يهمهم البقاء في المدينة . فليبقوا فيها »

على ان لورنس لم يكتف بهذا . بل قال في نفسه ، ولماذا لا نعمم هذه الخطة ، فنطلقها على جميع الاماكن التي يمكن حصر الترك فيها . « فالاتراك يحتاجون عندئذٍ الى ستمائة الف محارب لحماية المدن والمناطق المختلفة من غضب العرب . وليس عندهم الا مائة الف »

ثم هناك ناحية اخرى . كانت ذخيرة الحرب في الجيش التركي غير كثيرة التيسير وكان المحاربون

في الجيش التركي اكثر من الادوات الحربية اللازمة للنزال . لذلك يجب ان يكون غرضنا تدمير ذخيرة الحرب لا قتل المحاربين . فتدمير جسر تركي ، او قاطرة تركية ، او مدفع تركي ، او مفرقعة تركية ، اكبر فائدة من موت جندي تركي . ان حربنا يجب ان يكون حرب انفصال . اننا نستطيع ان نتفوق على العدو ، بالتهديد الذي تمثله صحراء لها اول ما لها آخر . اما نحن فلا نظهر في الميدان الا في ساعة الهجوم . وهذا الهجوم ليس من الهجوم المألوف في شيء ، لانه يجب ان يوجه الى مواد الحرب لا الى المحاربين . ولذلك يجب الا نبحث عند الهجوم ، عن مواطن الضعف او القوة في جيش العدو ، بل يجب ان نبحث عن مادته الحربية التي تكون اقرب ما يكون الى متناولنا »

هذا الابتداع في الخطط الحربية ، اذ درس مقترناً بنتائج الحرب الكبرى ، اصبح لاعمال لورنس في بلاد العرب مغزى جديد . فالتاريخ العسكري لا يسمه ان يقول ان لورنس كان قائد قوة غير نظامية ويكتفي بذلك . فهو ليس زعيماً من زعماء حروب العصابات . بل انه ذو عبقرية فذة في تدبير الخطط العسكرية ، وقد استشف بثاقب بصيرته ، الميل في الحروب الحديثة والمقبلة الى هذا النوع من الخطط ، الناشيء عن زيادة اعتماد الامم على مراكزها الصناعية . رأى ذلك أولاً في صحراء بلاد العرب ، وها نحن نرى الامم العسكرية اليوم تضع خططها الحربية ، واول اهدافها تدمير المراكز الصناعية قبل اقناء المحاربين . وقد اثبت ليدل هارت بكتاب وردله من لورنس ، ان لورنس نفسه كان يدرك كل الادراك مغزى خططه هذه في تطبيقها على الحروب بوجه عام

***

فلما تُحجب الحقيقة المنطوية في القول المأثور « ان التاريخ يعلمنا اننا لا نتعلم وزناً لعبر التاريخ » عن رجل كلورنس درس التاريخ ونفذ الى عبره . فكان ادراكه هذا باعثاً له على الشعور بوجوب الانفصال عن الدنيا والتفرغ لمطالب الروح العليا ، فانتظم « نفراً » في سلاح الطيران الجوي البريطاني ولم يقبل الا ان يكون « نفراً » فيه . واتفق ساعات فراغه في دراسة الآداب القديمة وقد اخرج للناس من سنتين ترجمة جديدة لالياذة هوميروس

ان شهوة العظمة والسلطان منبع أعظم الشرور ، فاذا لم تضبطها الحكمة ضبطاً تاماً — وقلما تجتمع الحكمة وشهوة السلطان — افضت الى اخفاق الرجل او الى تعرضه لحرية غيره من الناس . ونتيجة اطلاق العنان لهذه الشهوة ، كان من شأنه في جميع ادوار التاريخ ، أذية أصحابها وخلطائهم والقضايا التي نهضوا لتأييدها . وقد حال بين لورنس والانتظام في سلك هؤلاء الرجال صفاء ذهني كاد ان يكون حكمة خالصة

كان في شبابه يطمح الى بلوغ مقام العظمة في ميداني العمل والتأمل . ولكن خبرته اثبتت له تنافرهما . فأطبق « فراملَ » التأمل على « جيلات » العمل وقال لنفسه الى هنا وكفى

كان في السادسة والعشرين من عمره لما خاض ميدان الحرب وهدفه أن يصبح جنرالاً وان يحرز

لقب « فارس » قبل ان يبلغ الثلاثين ، ولكنه طرح هذه المطامح جانباً قبل بلوغ الثلاثين اذ كان تحقيق هذه الاغراض في متناول يده . ولكن المطمح الذي ظلّ قائماً في نفسه وهو في طريقه الى دمشق ، كان العمل دون الابهة التي تصحبه . فلما وصل دمشق قذف حتى بهذا المطمح الى الرياح . اقام في دمشق ثلاثة أيام وهو حاكمها المطلق من وراء ستار . فلما كان اليوم الرابع ، ادرك خطر السلطان على حكمته وحريته فارخى العنان . ذلك ان رداء السلطان كان قد ألقي على كتفيه عند ما نضجت في نفسه ثمرة الحكمة المبتغاة . فطرح الرداء ولاذ بالحكمة

كان الطموح آخر قيد يغلّ حريتهُ الروحية ، فطرح القيد ليبلغ الانعتاق التام . وكأنّ الطبيعة قد أعدتهُ خاصة لذلك فجردتهُ من شهوات معظم الرجال . فليس لشهوة الطعام والشراب اثر في حياته . انهُ يستطيع ان يأكل عشاء كامل الالوان وان يتمتع بلذاذته ، الاّ انه يفضل اكلة واحدة في اليوم ، وافضل الطعام ابسطهُ . ويظهر انهُ كان كذلك مجرداً من الشهوة الجنسية . وما على المرء الاّ ان يقدر ما تشغله هاتان الشهوتان من حياة الانسان ، وكيف تكبلانه بقيود منظورة وخفية ، حتى يعرف مدى الحرية التي ادركها لورنس بتجرده منهما

ثم هناك قيد آخر تتقيّد به الروح الحرة ، ولكنهُ قيد خفي ، وهو النزوع الى المنافسة . فهذا النزوع لازم لحث معظم الناس وحضهم على العمل . ولكنهُ يقوم حجر عثرة في سبيلهم كلما خطوا بضع خطوات . اما لورنس فقد تجرد منهُ فكان في حداثته يرغب عن الالعاب المدرسية القائمة على المنافسة ، ويروى انهُ من سنوات العمل العنيفة بحديقة صغيرة عزيزة عليه ، في محطة الطيران ، لما اعلن ضابط الفرقة انهُ يمنح جائزة لمن تتفوق حديقتهُ على حدائق اخوانه

فقد كان همّ لورنس في خلال حياته ، ان يبلغ مستوى معين من الرجولة اقامهُ في ذهنه ، لا ان يتفوق على احد . وكذلك ازال من حياته ، مصدراً من اهم مصادر النزاع بين الناس

ثم ان غريزة الامتلاك ابعد اثراً في تكبيل النفس من نزعة المنافسة . وقد حاول لورنس جهدهُ ان يقطع جميع حبالها . ولكن كيف يستطيع ذلك وهو انسان . ها هي تظهر في كتاب يملكهُ او في قطعة موسيقى يحوزها . حاول لورنس ان ينقص مطالبهُ المادية الى اقل حدّ مستطاع ، ومحاولاتهُ في التفلّت من بعض قيودها وسمت بعض افعاله بسمة الشذوذ . قال : « لو كان في وسعي لوهبت كل شيء ولتنازلت عن كل شيء » . ولكنهُ لم يستطع ذلك ، من دون ان يتعرض لاخماد رغباته الروحية ، او رغباته الحسية المتصلة بالروح . فالجمال لا ينفصل عن الحق . والحكمة نفسها تحول دون بلوغ الحرية المطلقة

لقد فاق لورنس كل رجل آخر اعرفهُ في اقترابه من الحرية المطلقة . ولكنهُ لم يستطع بلوغها . كان روح الحرية مجسماً في عالم مكبّل بالاغلال ، ولكن تجسيم هذه الروح في قالب انساني ، يقضي بالخضوع لبعض القيود ، ولو كان خفية عن عين الانسان العادي